قصة مترجمة من الأردية

قصة: الشاهد

قصة لـ" البروفيسور رشيد أحمد الصديقي *
ترجمة: د. عظمت الله **

الشاهد هو الدليل الذي ينبئ باقتراب يوم القيامة. والأمر الذي لا مفر منه بين المحكمة والقيامة هو حضور الشاهد؛ فالمحكمة مشهد مصغّر من مشاهد يوم القيامة، والقيامة محكمة كبرى بمعايير أوسع وأشمل. والفرق بينهما أن شاهد المحكمة إنسان، بينما شهود القيامة هم الملائكة الذين يكتبون أعمالنا ويعبدون الله على الدوام.

إن المحكمة توصف بالقيامة، والقيامة توصف بالمحكمة، وليس ذلك إلا بسبب وجود الشاهد. كما يُقال إن الفن يستمد أهميته من المرأة، فإن المحكمة تكتسب معناها من وجود الشاهد. والشاهد، سواء كان شاهد عيان، أو سمعيًّا، أو تقليديًّا، أو مهنيًّا، يظل شاهداً في جميع الأحوال، ولهذا فهو عنصر بالغ الخطورة في كل صوره. وسواء كان الشاهد صادقًا أو كاذبًا، فإن حضوره يظل ضروريًّا للمحكمة، تمامًا كما كانت ثروات الهند ضرورية للحكومة البريطانية، وعبادة الآلهة ضرورية للهندوس!

يرى الشاعر غالب أن حضرة الإنسان هي موضع توافد الأفكار، ولعلّ الشاهد أحد الأسباب الكامنة وراء ذلك. فقد اضطر الشاعر، بسبب تصريحاته، إلى أن يقضي جزءًا من حياته الشعرية في السجن! ومجرد ورود خيال الشاهد إلى الذهن كفيل بأن يثير سلسلة من الصور والمشاهد: القرية، ومركز الشرطة، والاستهانة، والمحكمة المحلية، والسجن. وقد أطلق البغاة على مجموع هذه الأحوال اسم 'الهند'، بينما سمّاها الأوفياء 'الحكومة'.

لقد وُضعت ضوابط تُفيد بأن كل إنسان يولد ميالًا للكذب، وأن كل شاهد لا يُعتد به إلا إذا ثبت صدقه بالفعل. ومن منظور الحقيقة، فإن وجود الإنسان لا يكتسب معنى إلا حين يكون شاهداً؛

---

* ، البروفيسور رشيد أحمد، گواه، مضامين رشيد، الطبعة الثانية، الناشر: أنجمن ترقي اردو هند، دلهي. ١٩٧٥م.
** أستاذ مساعد، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند.

وإلا فإن وجوده وعدمه سيّان. وفي واقع الحياة، قد لا يكون لكل حادث شاهد، إلا أن الفطرة الإنسانية تنفر من الفراغ. ولهذا، فإن جميع الوقائع المرتبطة بالقانون الجنائي ترفض الوحدة، ولا بد أن تصل الشرطة وشهودها إلى مسرح كل حادث، كما يتدفق الهواء إلى كل فراغ لملئه. وفي كثير من الحالات، يصل الشهود قبل وقوع الحوادث، تمامًا كما ترى الشرطة أن من المناسب أن تصل بعد وقوعها. وهكذا، فإن الشاهد حاضر في كل مكان، كما هو حال التخلف والانحطاط. وإذا كانت الأمة بحاجة إلى زعيم يكشف عن مظاهر التخلف الوطني، فإن حضور محامٍ أو رئيس مركز شرطة يصبح ضروريًّا من أجل 'خلق' الشاهد.

وكما يطمع بعض الوعّاظ، قبل أن يبدأوا الوعظ، فيما يُسعدهم من موائد 'كلوا واشربوا'، يفكّر بعض المحامين أو مسؤولي مراكز الشرطة في إمكانية العثور على شاهد أو عدمه حتى قبل بدء التحقيق في أي حادث. ويسهل عليهم إيجاد شاهد كما يسهل على بعض الناس إنجاب الأطفال. غير أن التعامل مع الشاهد والاعتناء بأمره أمر بالغ الصعوبة، كما هي الحال في تربية الأطفال؛ إذ إن كليهما يحتاج إلى طعام وشراب وكساء وتعليم وتربية.

وتعتمد أهمية الحادثة برمتها على وجود الشاهد، إذ قد يحوّل شاهدٌ واحدٌ جريمة قتلٍ عمد إلى قضية دفاع عن النفس، تمامًا كما يستطيع ناقد بارع تحويل عمل ماجن إلى فن رفيع. ولذلك، تصبح الحاجة ماسّة لأن يكون المدّعي ذا وجاهة وثروة، وأن يتطلع حاكم المحكمة إلى نيل الألقاب والجوائز، مترقّبًا قدوم رأس السنة الفارسية — النوروز — أو عيد ميلاد الملك المعظم.

في الحرب العالمية الأولى، كانت الدول المحاربة تردد: وفّروا لنا الأفراد وأنظمة الحرب، ونحن سنتكفّل بإلحاق الهزيمة الساحقة بالأعداء. وكأن هذا كان سرًّا من الأسرار الكبرى التي تم الكشف عنها. ولعلّ سلفًا من أسلافهم، أرشميدس، كان أول من أشار إلى هذه الفكرة عندما قال: 'أعطوني نقطة ارتكاز، وسأقلب الأرض من عرشها.'

لكن المسؤول الأعظم لدى هؤلاء جميعًا كان رجل الشرطة، الذي أعلن بثقة: 'إذا وفّرتم لي الشهود، فلن نُبقي في الهند تاجر كوكايين واحد، ولن ينجو أحد ممّن لا يتعاون معنا.' وهكذا، وعد بأن يُرفع العلم البريطاني الوطني في كل مكانٍ عالٍ، بينما يُكتفى في الأماكن المنخفضة بعبارة: 'سلامٌ عليك'."

يُرجّح أن حُسن أي أمر أو قبحه في أي عصر لا يعتمد إلا على مدى رضا أو سخط أصحاب القرار فيه. فصاحب الجاه والثروة، كالملك، لا يمكن أن يُتهم بارتكاب خطأ، ربما لأن إثبات الجريمة في حقه يتطلب وجود شاهد، وهو أمر نادر أو مستحيل. وإن توافرت الشهادات، فغالبًا لا تُدين المحكمة فعله كجريمة، بل تصفه بأنه إسهام في الفن أو مساهمة في تطوير الثقافة. أما خصمه، فإن صدور مذكرة بسيطة من الشرطة بحقه يكفي لإدانته. وتُولي المحاكم الهندية أهمية بالغة لأقوال رجال الشرطة وشهاداتهم، تمامًا كما يقدّس عامة الناس رجال الدين وأصحاب الذكاء، وكأن كلا الفريقين معصومان وقديسان.

يُولد كل أوروبي منتصرًا، بينما يُولد كل هندي شاهدًا حكوميًّا أو متهمًا يعترف بجريمته سلفًا. ومثل هذا الشاهد يشبه كاتبًا يؤلف نصوصًا مليئة بالعواطف والتخيلات غير اللائقة، لكنه لا يُحاسب، بل يُشاد به ويُكرَّم، على اعتبار أنه قد ترجم 'الحقائق' أو سخر ببلاغة من الهند وأبنائها. أما الشاهد الحكومي، فأنتم تعرفونه جيدًا: في أغلب الأحيان، يكون هو المجرم الحقيقي، ومع ذلك يُعاقَب الآخرون بناءً على أقواله، بينما يُطلَق سراحه!

وكما فُرض على الهند أن يحكمها قومٌ واحد، فقد مُنحت صلاحية الشهادة أيضًا لطائفة محددة من الناس، وهي فئة يُطلق عليها في الأردية اسم بتواري، ويمكن وصفها بأنها الحاكم غير العنيف للقرية—الدكتاتور الناعم. فالبريطاني يأكل الكعك ويزأر، بينما البتواري يتلقى التوبيخ، ويأخذ الهدايا، ثم يدوّن في دفاتره ما يشاء. وله في القرية نفس المنزلة التي يحتلها المحامي في المحكمة، أو الكاتب في المكتب: الجميع قادر على فعل ما يريد، بشرط أن ينال ما يريد من هدايا."

ولا يمكن التغاضي عن أهمية البتواري كشاهد. وإن صح المثل القائل: 'لا يمكن أن يصدر خطأ من الملك'، فإن من المؤكد أنه لا يمكن الاستهزاء بالبتواري، فهو على دراية تامة بهذا السر. ومن بعده، لم يتمكن أحد من إدراك هذه الحقيقة إلا الزعيم القومي، الذي علم جيداً أن الكلمات التي تُستخدم للاستهزاء والتقدير لا قيمة لها ما لم تُرفق بالهدايا والحلوى.

كما لا يستطيع المواطن الهندي تجنب الزواج والجوع، كُتب للبتواري أن يصبح شاهداً. فهو يحتفظ في دفتره الوسخ بسجلات محاسبية يُمكن استخدامها عند الحاجة، وهذه السجلات، التي تشبه الملاحظات السياسية أو الكلمات الصوفية، يمكن لأي شخص تفسيرها كما يشاء، حيث يستطيع أن يتجاوز المسؤولية أو يتحملها، وفقاً للظروف.

كان لَالَه تشرونجي لال بتواريًا في القرية، وكان غَتْغَادِين فلاحًا فقيرًا. وفي إحدى المحاكمات، احتاج غنغادين إلى شهادة لَالَه. كل ما كان يمتلكه غنغادين هو كوخ قديم تغطيه أغصان خضراء لثمار كَاشِيْ، وتلك الثمرة ذات الزهور البيضاء والبنية، وأشعتها التي تشرق وتغيب صباحًا ومساءً. على جانب كان هناك كومة من روث البقر والجاموس، وعلى الجانب الآخر حفرة مملوءة بالسماد والنفايات. خلف هذا كله كان هناك حقل، وأمامه أرض صغيرة لزراعة الخضروات. كان الرجل الإقطاعي يُمارس سلطته على الفلاحين مثلما كان يُخشى من المسؤول تشرونجي. وكان لدى غنغادين بعض الحيوانات، تشمل أطفاله وزوجته بالإضافة إلى الأبقار والجواميس والأغنام والماعز.

ومن خلال رؤية أوضاع الفلاحين الهنود، يصعب الحديث بأن أولادهم حيوانات أو الحيوانات منذ بدء المحاكمة، تم نذر جميع ممتلكات غنغادين ومعاشه لصالح المدعو لَالَه، فكان يُرسل إليه الحليب والجبن والخضروات إلى مطبخه. وكان غنغادين يملأ الأواني، وزوجته تخدم زوجة لاله، أما الأولاد والبنات فكانوا يلعبون مع أطفال لاله. وبالطبع، كل بتواري هو دودة المحكمة، وإذا لم يزر المحكمة يومًا ما، تكون حياته خالية من السعادة والبهجة.

لكن منذ أن بدأت محاكمة غنغادين، أصبح لاله لا يفكر في المحكمة إلا قليلاً، وعندما يتحدث غنغادين عن المحكمة، يقول: "إيها الأخ دين، هذا شيء سيئ. من الأفضل أن نبتعد عن الشرطة والمحكمة. أنت تعلم حال أبي، فقد قضى أيامًا في السجن بسبب صدقه، ولم يهتم به أحد." فبدأ غنغادين يلتمس من لاله ويخضع له، يتضرع إليه حتى كان يلامس رجليه، فيمد لاله الرجلين وهو يقول: "لا، لا." مثلما يطمع الطبيب والمحامي في رسومهم، لكنهم يقولون: "يا صاحبي! ما هذا؟ ما هذا؟ لم تكن الحاجة لهذا."

وكان لاله يطمع في أراضي غنغادين وحيواناته وكوخه. بينما كان الفقر والدمار يلاحقان غنغادين وأسرته. وفي النهاية، انتصر لاله، وأصبح غنغادين عبداً للوثائق. وعندما حان موعد المحاكمة، توجه الاثنان إلى المحكمة.

.

وكان الطريق إلى المحكمة يمر عبر المدينة، وفجأة تباطأت خطوات لاله، فوقف أمام دكان للأحذية قائلاً: 'لقد انكسرت حذائي، ولم يعد من السهل المشي به، ولا يمكنني التوجه إلى المحكمة كل يوم. لابد من شراء حذاء جديد.' فهم غنغادين ما يقصده، فدفع الثمن وأخذ لاله حذاء جديداً، ثم استمرا في طريقهما.

لم يمشيا سوى مسافة قصيرة حتى ظهرا أمام دكان للأقمشة. فوقف لاله فجأة، كما لو كان هناك حصى في حذائه، ليخرجها بهدوء، ثم قال: 'إيها الأخ غنغادين، إذا دخلت بهذه العمامة القديمة إلى المحكمة، سيأمر القاضي، الذي هو جلاد المحكمة، بإخراجي منها على الفور. ولن يتحقق حلمك في الفوز.'

دهش غنغادين، وبدأ يقول: 'لقد ضاع وقتنا، وشارف موعد المحكمة على الوصول. لا بأس عليك، يمكنك شراءها في طريق العودة.'

لكن لاله رد بنبرة مختلفة، قائلاً: 'طيب. لكن لماذا أسمح بهتك عرضي وعزتي مقابل بضع جنيهاتك التافهة؟ لا، لن أذهب. سنأخذ من الطبيب غوكل برشاد شهادة طبية تكتب فيها أن المدعو لاله تشرونجي لال مصاب بإسهال، وبالتالي لن أتمكن من حضور المحكمة.'

لم يفهم غنغادين حيلة الإسهال بشكل جيد حتى استلقى لاله على خشبة أمام دكان الأقمشة وكأنه ينتظر أن يُعلن عن إصابته بالإسهال. وأخيرًا، تم شراء قماش العمامة

ولم يمكثا طويلاً في السير، حتى ظهر دكان الحلويات في الأفق. فتوقف لاله فجأة، كأنه تذكر أمرًا ضروريًا، وقال لغنغوا: 'انظر، كيف نسينا شراء الحلويات لآلهتنا دورغا!'

وطبعًا، الفلاحون يُعدون عبّادًا للأوهام والخرافات، كما أن كل واحد منا، أنت وأنا، محب لذاته فقط. فتدور أمام عيني غنغوا مشاهد من حرمان ودمار الأسرة بأكملها من جهة، ومن جهة أخرى، ظهرت أمامه نتائج المحاكمة المتوقعة. لكنه بقي صامتًا ولم يتكلم قط، واشترى كيلو من حلوى الزلابية.

لقد انتهت هذه المرحلة أيضًا، وواصل لاله وغنغوا سيرهما معًا بصمت. بينما كانت فكرة شاغلة تأسر ذهن غنغوا: 'إذا كان لاله على هذه الحال، فكيف سأعود في الظهيرة بدون مال؟' في حين كان لاله مشغولًا بالتفكير في كيفية كسب المزيد من أموال غنغوا

ولم يكن واضحًا تمامًا ماذا كان مستوى الأمل أو القنوط لدى غنغوا. ولكن سرعان ما حددت فطنة لاله مكانه وصاحبه، إذ قال: 'هذه الرياح التي تهب من الشرق قد كدرت صفوة الحياة، ومنذ شهر، ازدادت شدة التهاب المفاصل. ولو لم تكن محاكمتك هذه، لما تركتُ البيت والأهل في هذه الحال.'

وبينما كان يتحدث، استلقى لاله تحت شجرة ظليلة، باسطًا عمامته، وبدأ ينتظر المشروب الذي كان صاحب العربة يتناوله. أراد صاحب العربة أن يلفت انتباه الضيف المكرم إلى حلواه وفلفله، وقال: 'أيها الأخ لاله! لتتناول مشروبًا، إلى أين أنت ذاهب في هذا الوقت؟ استرح قليلاً.

وكان غنغوا في حالة، لو سمحت له الظروف، لما تردد في أن يُوقع لاله وصاحب العربة وعربته في البئر القريب، بل وكان سيقفز هو أيضًا في البئر نفسه. ولكن العجز كان هو المشكلة التي تطفئ شدة الحزن والغضب والغرور في آن واحد. فقال غنغوا: 'يا صاحبي لاله، ارحمني، لقد برزت الآلهة الشمس، متى نصل إلى المحكمة؟'

أجاب لاله بأنينٍ وبدون أي اهتمام: 'يا صاحبي! لو لم نخدم أنفسنا، فمن يعتني بأطفالنا؟ اذهب أنت إلى المحكمة، حياتي ضائعة، تَبًّا ووَيْلاً!

وقال صاحب العربة: 'هون عليك، أيها الأخ لاله، تفضل بهذا المشروب، ولتتناول شيئاً ما، ثم قدّم وثيقة حلف في المحكمة.' وأثناء ذلك، ظهرت عربة خالية يجرها حصان، فقال صاحب العربة: 'أيها الأخ، اسمع، لا يشعر لاله براحة، فلماذا لا تجلسه على العربة؟' فتوقف صاحب العربة، وغيّر لاله وضعه مستلقياً. ثم دعا صاحب العربة لاله إلى تناول الحلوى والفلافل وشرب الماء البارد، موضحًا أن الأمر يتعلق بمجرى المحكمة، ولا يعرف أحد متى تأتي نوبة الأكل والشرب. فدفع غنغوا بعض الفلوس لصاحب العربة، وقد لبّى لاله دعوة صاحب العربة، وركبا معاً العربة. وكان أحدهما يئن والآخر يلقي اللوم.

جاء نداء المحكمة، واستعد لاله بعمامته وحقيبته، واكتشف أن الخادم يعرفه. فدفعه، واضعًا يده في عنقه، زاجراً بشفتيه، حتى دخل لاله إلى زاوية الشهود. استمرت سلسلة الأسئلة والأجوبة حتى المساء، حيث قدّم لاله شهادته بطريقة لم يتضح منها معارضة ولا موافقة. وفي تلك الفترة، توجهت جميع الأطراف في المحكمة، من محامٍ، وأطراف القضية، والخدم، والحضور، إلى لاله بكلمات توبيخ تليق بهم، حتى أنهم استمروا في توعده وتهديده، لكن لاله لم يأبه بأحد منهم.

رفعت مجريات المحكمة، فخرج لاله وكان هناك حشد من أصحاب العربات، بعضها كان يركب عليها البعض، فيما كان الآخرون يسعون لركاب آخرين. وفي أثناء هذه المحاولات، ظهر عليهم لاله، وعلى رأسه عمامة جديدة، وفي رجليه أحذية جديدة، وفي يده أمتعة غنائم حصل عليها، وفي جنبه حقيبة غير قابلة للتلف. فأحاط به أصحاب العربات النشطاء، مرتدين نصف اللباس، وفي أيديهم عصاهم. أخذ أحدهم حقيبته ليضعها على عربته، وآخر أمسك بأمتعته، وثالث بدأ يجرّ لاله سحبًا إلى مسافة ما. في هذه المحاولة والمواجهة، غادرت العمامة رأسه، والأحذية رجليه، فأخذ أصحاب العربات الآخرون هذه الأمتعة كبركة ووضعوها على عرباتهم، وحدث كل ذلك في طرفة عين.

وهكذا، تم إخلاء الميدان. غادر جميع أصحاب العربات، وترك لاله وحيدًا، يفكر فيمن ستكون المشكلة القادمة في العالم: صاحب العربة أم بتواري!

..... ❖❖❖❖❖ .....